الكليّة الشرقيّة في الجامعة اليسوعيّة على مدى قرن ونيّف:

مضت الأيّام، والقضيّة باقية والمعهد هاهنا!

بقلم الأب سليم دكّاش اليسوعيّ

فكرة إنشاء الكليّة الشرقيّة في الجامعة اليسوعيّة، بعد إطلاق كليّات اللّاهوت والفلسفة والطبّ العامّ والصيدلة، هي فكرة قديمة سابقة ملازمة للنوايا والأفكار بشأن تأسيس جامعة أعطيَ لها لاحقًا في السنة 1875 اسم جامعة القدّيس يوسف في بيروت. في السنة 1813، اقترح المستشرق الأب يوحنّا بوليغ (Bollig) على الرئيس العامّ للرهبنة الأب باكس (Becks) أن يؤسس في إكليريكيّة غزير "الأكاديميّة الشرقيّة" التي سوف تسعى إلى تكوين الأساتذة الشباب والكتّاب على الدراسات الشرقيّة. وذلك لمواجهة البروتستانت. فالبعض يمكثون إثر تكوينهم في غزير والبعض الآخر يعود إلى مقاطعته، البعض لتعليم الكتاب المقدّس واللغات الشرقيّة والبعض الآخر قد حضن آراء البروتستانت كتابةً، وهم الوحيدون العاملون في هذا الحقل العلميّ. في السنة 1881، طُرِحَ الموضوع مجدّدًا حيث إنّ الاقتراح الأوّل سقط ولم يعُد قيد التداول، حتّى مع فتح باب الدروس في الكلية الثانويّة وفي الجامعة، أصبح الهمُّ مركّزًا على تعليم اللغة العربيّة وآدابها في الصفوف الثانويّة في الكليّة وكذلك على السريانيّة والعبريّة في كليّة اللاهوت الناشئة آنذاك ومرّة ثانية تأجّل موضوع إنشاء الكليّة الشرقيّة.

الفكرة سوف تأتي للمرّة الثالثة من روما، حيث إنّ الرئيس الإقليميّ آنذاك الأب ماريوس بويون (Bouillon) طلب من الأب لوسيان كاتان (Cattin) في السنة 1902 بأن يباشر في جامعة القدّيس يوسف تدريس العلوم الشرقيّة ومنها اللغات العربيّة والسريانيّة والعبريّة، التاريخ والجغرافيا والجيولوجيا المحليّة، علوم الآثار، علوم الكتابات، المؤسّسات والآثار اليونانيّة والرومانيّة، وهي علوم ينبغي أن تساعد بوجه غير مباشر دروس النصوص المقدّسة. وهكذا تأسّست الكلية تحت إدارة الأب كاتان مع الأب لويس شيخو كنائب للعميد ومديرًا للدروس فيها.

وهكذا افتتحت الكليّة الدروس فيها في الثاني من كانون الأوّل 1902 معتمدة الحلقة الأولى لمدّة ثلاث سنوات، حيث تمّ إضافة اللغتين القبطيّة والأثيوبيّة على لائحة اللغات المدَرّسة. ومن الوجوه التي لمعت في تلك الحقبة الأب موريس بويج (Bouyges) في الفلسفة العربيّة، الأب لويس شيخو في اللغة العربيّة وآدابها، الأب لويس جلابير (Jalabert) في علوم الآثار والكتابات، بول جوون (Jouon) للعبريّة، هنري لامنس (Lammens) للتاريخ، ألكسي مالون (Mallon) لتعليم القبطيّة ولاحقًا سوف يؤسّس مدرسة الكتاب المقدّس في القدس لتعليم العبريّة، لويس وسيبستيان رونزفال (Ronzevalle) للغة اليونانية والعلوم والآثار والكتابات، وأنطوان صالحاني لآداب

اللغة العربيّة. وإذا كانت السنة الأولى والثانية مفتوحتين أمام جميع الهواة، فإن إكمال السنة الثالثة بهدف نيل الشهادة مرتبط بإتمام السنة الثالثة والخضوع لامتحانات قاسية نوعًا ما. وفي الوقت عينه، تمّ إنشاء مرحلة الدكتوراه في العلوم الشرقيّة، وقد رافع طالبان عن أطروحتيهما في السنة 1906، ممّا أعلى من شأن الكليّة ومهّد لصدور العدد الأوّل من "مزيج الكليّة الشرقيّة"، المجلّة التي أصبحت لاحقًا "مزيج جامعة القدّيس يوسف" (Mélanges de l'Université Saint-Joseph). وهكذا من السنة 1902 حتّى 1906، استمرّت الكليّة الشرقيّة ناشطة في تقديم برنامجها المكوّن من تعليم اللغات وعلوم الآثار والكتابات وغيرها من الدراسات. وفي السنة 1906، طلب رئيس عام الرهبانيّة اليسوعيّة بأن يتمّ إدخال تفسير النصوص المقدّسة إلى البرنامج العامّ، إلّا أنّ ذلك لم يتمّ بعد ملاحظات عديدة حول المشروع الخاصّ بكليّة اللاهوت، ممّا جعل الرئيس العامّ يسحب طلبه. وعشيّة الحرب العالميّة الأولى، كانت الكلية ملتزمة بالدروس العامّة، إلى أن جاءتها تلك الحرب فتوقّف عمل الكليّة وبرنامجها، وتشتّت المدرّسون في أصقاع شتّى.

مع النهاية الأولى للكليّة، يتوقّف المراقب ليقول إنّها أكملت مهمّتها بحث خرّجت مئة ونيّف من المتخصّصين في مختلف المجالات، بين السنوات 1902 و 1913.

عادت الدراسات الشرقيّة وضرورة التقدّم بها الى الواجهة في السنة 1933، عندما أعلن رئيس الجامعة عن إطلاق سلسلة "دروس في الآداب الشرقيّة" لأنّه لا بدّ من وضع ما حقّقه الاستشراق من نتائج في متناول الاختصاصيّين، وكذلك طرق البحث العلميّ ممّا يتيح تحقيق التقدّم في هذا المجال. كان ذلك أوّل أهداف "الدروس في الآداب الشرقيّة" والتي انطلقت على يد مجموعة من الآباء والأساتذة والعلمانيين من بينهم رينيه موترد (Mouterde) المتخصّص في علم الآثار والتاريخ وفؤاد أفرام البستانيّ في الآداب العربيّة وتاريخ المسيحيّة الشرقيّة، والأب جان مسريان في العلوم الأرمنيّة، والأمير موريس شهاب في علوم الآثار.

ومع تواصل الدروس في السنوات اللاحقة والنجاحات التي حقّقتها مع توسيع دائرة المواضيع المدرجة في البرنامج، قرّ الرأي بين الأب موترد وعميد كليّة الآداب في ليون – فرنسا، لوضع الدروس تحت رعاية جامعة ليون من ناحية التصديق على الشهادات التي سوف يعطيها معهد الآداب الشرقيّة كما جرت تسميته في جامعة القدّيس يوسف ببيروت، وذلك ابتداءً من السنة الأكاديميّة 1937-1938. وهذا الاتّفاق دفع جامعة ليون إلى إيفاد العشرات من الأساتذة والاختصاصيين في شتّى المجالات لإعطاء الدروس في بيروت ونيل شهادات مشتركة ما بين ليون وبيروت. ودامت هذه الاتّفاقيّة فاعلة حتّى السنة 1976 عندما تمّت إعادة تموضع جامعة القدّيس يوسف في بيروت كجامعة لبنانيّة لديها شهاداتها الخاصّة التي تمنحها لطلّابها والمتخرّجين من صفوفها.

وهكذا فإن المعهد شقّ طريقه عبر تلك السنوات الطويلة من السنة 1937 حتّى اليوم، فنختصر هذا العرض لمسيرته بالخلاصات التالية:

أوّلًا: إنّ تأسيس الكلية الشرقيّة في السنة 1902 جاء على خلفيّة كاثوليكيّة رومانيّة لتزويد الاختصاصيين في الكتاب المقدّس وخصوصًا الطلّاب منهم بعلوم لغويّة وتاريخيّة وحضاريّة لها علاقتها القويّة بالكتاب المقدّس أكان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ولقد تحقّق هذا الهدف إبّان المرحلة الأولى من عمر الكلية (بين 1902 و1913)، وكذلك في المرحلة الثانية، حيث شهد الكاردينال بيزردو Pizzardo، مدير دائرة الإكليريكيّات والجامعات في الفاتيكان في السنة 1955، بأنّ العلاقة القويّة بين معهد الآداب الشرقيّة وكليّة اللاهوت، حيث تخصّص الكثير من الطلّاب في العلوم المقدّسة، فعلت فعلها وأعطت النتائج المرجوّة.

ثانيًا: إنّ العلاقة بين معهد الآداب الشرقيّة وكليّة الآداب في جامعة ليون من السنة 1937 وحتّى السنة 1976 كان لها الصدى الطيّب إذ إنّها عزّزت أوطد العلاقات بين الجانبين الشريكين في مجال الدراسات الاستشراقيّة، وخير دليل على ذلك الدراسات المشتركة ومنها صدر في سلسلة دراسات وأبحاث الصادرة عن المعهد عن طريق المطبعة الكاثوليكيّة ودار النشر المنبثقة عنها، دار المشرق، والواقع أنّ إيقاف التصديق على شهادات المعهد من طرف ليون، ترك بعض الأثر السلبيّ على واقع المعهد ورسالته، مع العلم أنّ المعهد خلال السبعينات وحتّى نهاية القرن العشرين، كان لديه قدرات وكفايات فكرية عالية تقودها مجموعة من اليسوعيين كأمثال رولان مينيه (Meynet)، لويس بوزيه (Pouzet) وميشال ألار (Allard) وغيرهم من العلمانيين واليسوعيين. وحاول المعهد أن يتخطّى المرحلة مع ليون وكذلك موقعة الحرب الأهليّة في لبنان، عندما فتح الأبواب، عبر الدبلوم في الآداب والفلسفة وغيرها، أمام طلّاب العالم العربيّ، ومنهم من سوريا والكويت، والأردن وعُمان وغيرها من الدول الذين كانوا يأتون بيروت لمتابعة دروسهم وتحصيل شهاداتهم. إلّا أنّ إرث الحرب في لبنان وآثارها الهادمة عطّلت مسيرة المعهد شيئًا فشيئًا، بالإضافة إلى تأسيس العديد من الليّات والمعاهد الأدبيّة والشرقيّة في دول المنطقة والحدّ القانونيّ في استخدام الشهادات لتعزيز الصعود في الوظيفة العامّة في بعض دول الوطن العربيّ جعل المعهد محدود الفعاليّة في مواجهته التطوّرات الجديدة.

ثالثًا: إنّ المعهد اشتهر منذ أن كان كليّة شرقيّة بعلماء ومعلّمين واختصاصيّين نبراسيّين اختباريين من الآباء اليسوعيين وكذلك من العلمانيين الذين رافقوا أجيال الطلبة سنة بعد سنة وكانوا لهم خير الموجّهين والباحثين والأساتذة، وهم بالعشرات من كلّ حدبٍ وصوب واختصاص. ولا شكّ أنّ من بين المتخرّجين والمتخرّجات، أسماء لمعت اللمعان القويّ في عالم الشعر والنقد والتعليم من أمثال أدونيس، عقل العويط، صونيا بيوتي، الوزيرة ليلى الصلح، وليد عبّود، كاتيا الطويل، عبده وازن، أهيف سنّو، أحمد الكواري، حسن فضل الله، غازي قانصوه، جبّور عبد النور، أنطوان كرباج، إسكندر توما، أحمد مومنه، غالب غانم، محمّد الخوالده، وغيرهم من كبار القوم في لبنان والمهجر. ولنا في

هذه الكوكبة نموذجًا صالحًا لطلّاب اليوم وللغد بأن يكونوا رياديّين في الفكر، مبدعين في التعبير والفصاحة عن مكنونهم، شاهدين بأن الأدب والفلسفة والعلوم الأدبيّة ليست سحابة صيف عابرة بل هي طاقة تحملنا نحو المستقبل.

فتحيّة أخيرة أوجّهها في هذه الافتتاحيّة الدراسة إلى مجمل العمداء والمدراء والأساتذة والبحّاثة والطلّاب الذين زيّنوا بوجودهم والتزامهم الأدبيّ والمهنيّ تاريخ الكليّة ثمّ المعهد منذ البدايات حتّى اليوم. تحيّة لأولئك الذين في غيابهم وحضورهم الدائم أشرق المعهد ومسيرته بالكثير من العلم والمحبّة والعطاء. وعندما نحيّي السابقين فإنّما نحيّي العاملين اليوم من أجل الحاضر والغد، نقول لهم إن الجامعة تدعم مسيرة المعهد في رسالته إلى جانب الرهبانيّة اليسوعيّة في برنامج الفلسفة العربيّة والحضارة الإسلاميّة، وهي تدعو مسؤولي المعهد اليوم للتفكير كيف نستعيد الحضور بشكل فاعل على صعيد مختلف الاختصاصات الشرقيّة لأنّ الحاجة هي هنا وقدراتنا كذلك.